جدي علي الطنطاوي في بيته

بقلم: عابدة المؤيد العظم *

كم قديم وصاحباتي يسألنني عن جدي - يرحمه الله - كيف هو مع أهل بيته؟ وعن سيرته الخاصة: ماذا يحب، وما يصنع، وكيف يقضي يومه؟ وإني إذ أسترجع اليوم - وبعد وفاته - كيف كان جدي خلال الأعوام التي مضت، وكيف كان يتصرف، أجد أنه قد يكون في الإجابة عن هذه الأسئلة بعض الفائدة. فإن كان أحد من الناس ما زال راغباً في أن يتعرف إلى جدي عن كثب، وأن يدخل إلى حياته الخاصة وإلى عالمه الصغير، فليقرأ ما يلي:

أنا لا أعرف جدي «ولا أستطيع أن أتخيله» إلا جالساً في إحدى الزوايا طوال النهار، ملازماً لغرفته، لا يكاد يغادرها إلا لضرورة بل إنه لا يخرج من داره كلها إلا لضرورة ملحة، والضرورة لا تشمل التسوق فهو لا يشتري شيئاً حتى لوازم البيت المهمة! بل إنه لا يستعمل من غرفته إلا مساحة صغيرة محصورة منزوية هي تلك الزاوية!

والمكان الذي يجلس فيه هو سريره الذي ينام عليه، وهو كرسيه الذي يقعد فوقه ليتناول طعامه وشرابه، وفي زاويته تلك كان يقرأ، ومن مكانه ذاك كان يحضر للإذاعة والرائي. أما مكتبه الذي يعمل عليه فهو خشبة صغيرة يتكىء عليها وفوقها يجري قلمه، ويكتب مقالاته. وقد يخط - وهو خطاط محترف - فلا تؤثر جلسته تلك على جودة خطه وإتقانه.

وتلتف حوله، وتحف به كتبه وأقلامه وأوراقه، وتتكدس حوله أكوام من الصحف والمجلات والمراجع، ويبدو خلفه ضوء ساطع ليسهل عليه القراءة. ومن الأنوار المهمة جدا بالنسبة إليه أن يكون زر التحكم في هذا الضوء في متناول يديه، وذلك حتى يبادر فوراً إلى كتابة أي خاطرة قد تمر في ذهنه ليلاً.

كما يحرص جدي أن تكون أمام ناظريه مباشرة «ساعة جدارية» كبيرة مضبوطة تسهل قراءة الوقت فيها، وأن تكون قريباً منه «ساعة منبه» لتوقظه للصلاة، ويضع بجانبه نظارة القراءة، ومنشفة وعلبة مناديل، والمسجل وعلبة أشرطة. ولقد كان يحمل معه زاويته تلك أينما ذهب، أقصد أننا كنا نصنع له زاوية مماثلة لها كلما حل بديارنا، ونزودها بالمواد اللازمة حتى تبدو كأنها زاويته الأصلية.

---

* حفيدة الشيخ علي الطنطاوي.

وكان يجلس في الزاوية المزيفة الجلسة نفسها بالهيئة ذاتها بالملابس عينها.

لقد كان ما يفعله جدي في غالب وقته هو القراءة ولا شيء غير القراءة والكتابة والمراجعة، أي القراءة ومشتقاتها، أو القراءة وأخواتها. ولكن تلك القراءة لم تكن لتؤثر على أهل بيته شيئاً فكان يستقبلنا بحفاوة إذا حضرنا إليه، ويترك ما في يديه ويتفرغ لملاقاتنا ومؤانستنا وهو جالس في مجلسه ذاك في غرفته تلك!

كان هذا جدي الذي عرفته والذي عشت معه أياماً رائعة لا تنسى. ولكن عندما انتقل إلى جدة عام ١٩٩١م، بدل عاداته وذوقه في الطعام والشراب والنوم، وغير هيئته في الجلوس، فترك جلسته تلك فأصبح يجلس على أريكة عادية وصار ينام في غرفة النوم ليلاً، ويجلس معنا في غرفة المعيشة نهاراً.. وبدأ جدي يتغير ببطء وبالتدريج:

- فقلّتْ ساعات قراءته ومطالعاته، وصار يكتفي بالنوع الذي يحبه أكثر من غيره من الكتب كالمذكرات الشخصية والذكريات «وقد كان - من قبل - يقرأ في كل شيء تقريبا»، ثم صار يكتفي بما يهدى إليه من الكتب ولا يطلب سواه، واقتصر أخيراً على مطالعة الصحف والمجلات التي كانت تصله بانتظام.

- ونال التغيير من سلوكه، فقد كان جدي - قديماً - سريع الغضب سريع الفيء، لكنه تبدل فصار قليل الغضب، سمحاً وأكثر تفهماً ورفقاً. وكان دائم الرضا على بناته وأحفاده يتجاوز عن التقصير ويتسامح.

- وطال التغيير نظرته لبعض الأمور، فمثلاً كان قديماً لا يشجع الإناث على نيل الشهادات العالية! ثم بدل رأيه نحو الأفضل فكان سعيداً بأن ابنتيه «بيان، ويمان» تتابعان الدراسة، وكان يشجعهما ويحثهما على المضي قدما.

- وكان في الفترة الأخيرة متفرغاً تماماً لعائلته، لا يكاد يستيقظ من النوم حتى يبدأ بالاتصال بنا، ودعوتنا إلى زيارته، وكان يحتفل بنا إذا ذهبنا إليه، ويكرر ذلك طوال الزيارة: «أهلاً وسهلاً، لقد سررت جداً بحضوركم»، وكان يقول لي إذا زرته: «هيا تكلمي، وحدثيني»، وكنت في البداية أحتار بماذا أكلمه!؟ ثم صرت بعد هذا أستعد لزيارته كما كان يستعد هو لبرنامجه الإذاعي! فأجمع بعض الأسئلة الفقهية والدينية والاجتماعية التي تمر معي أثناء مطالعاتي في الكتب وأحملها إليه ليجيبني عنها. وكنت أسأله عن ذكرياته، أو أسأله رأيه في الحوادث والوقائع.. فيجيبني باختصار أو يعتذر لألم في رأسه، أو يؤجلني لأجل غير مسمى، ولكني ورغم ذلك كنت أسر جداً بزيارته.

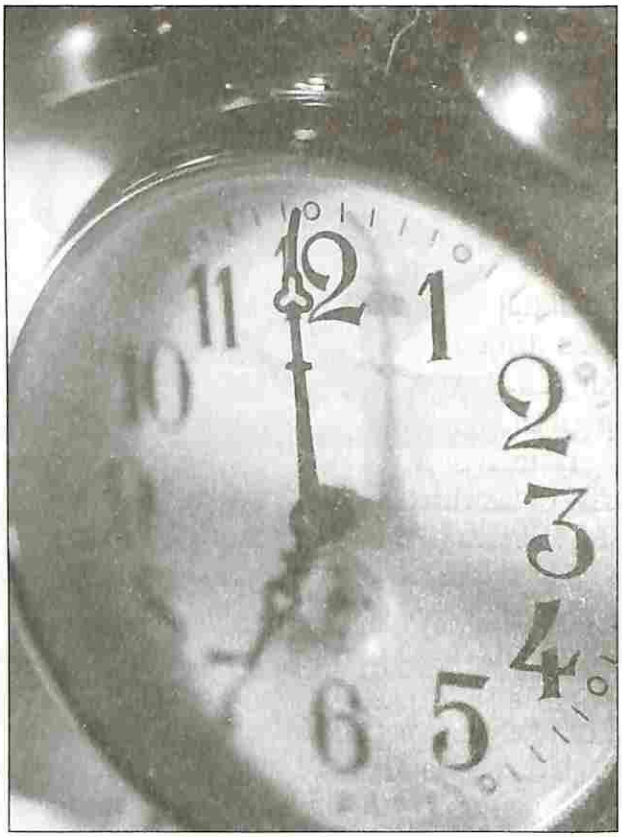

ولعله كان يسر هو أيضاً إذ كان يشكرني على محاولتي إيناسه والتسرية عنه.

وكان خلال الزيارات - كما عهدناه - محيطاً بما يجري، حاضر النكتة متفتح الذهن، وقد يستشهد ببيت شعر أو يروي قصة، أو يستذكر واقعة «وإن قل ذلك عنّ معدله الأصلي».

- وكان قديماً عائشاً وحده، لا يخالط الناس ولا يكاد يرى أحداً إلا أهل بيته وبعض المقربين إليه، فأضحى يحب الاجتماع بالناس فصرنا لا نتركه إلا قليلاً، في النهار نزوره نحن بناته وحفيداته، وفي الليل يزوره الرجال الطيبون مع أحفاده وأصهاره ويحملون معهم إليه الأسئلة والأخبار، ويمتعونه بأحاديثهم.

كان هذا بعض ما تغير في جدي، وكان آخره معدته! إذ كان يفتخر دائماً بأن معدته تهضم الحديد، وبأنه ما شكا منها يوماً، فما أودى به إلا معدته تلك إذ كان نزيف المعدة هو السبب المباشر لوفاته يرحمه الله.

أعجبني في جدي

وإذا كان جدي قد تغير في بعض المظاهر فإن جوهره لم يتغير إلا قليلاً، حيث لبث محافظاً على تميزه في أكثر الأمور، وإني - عندما أتذكر شيئاً من ذلك - أحمد الله أن حباني بجد رائع متميز هو «علي الطنطاوي» جد قد قسم حياته بتوازن بين نفسه وعائلته وعمله، واستطاع أن يكون

مدرساً وقاضياً وفقيهاً وأديباً ومصلحاً.. وأن يكون أبا وأخا ثم جدا.. وقد نجح في أدواره كلها.. وكان نعم الداعية ونعم الأب والجد.. وإني ليسعدني أن أذكر أشياء كانت من أكثر ما أعجبني في جدي «علي الطنطاوي» عل أحداً يستفيد منها بشيء فيدعو لي وله:

• كان جدي يولي الصلاة جل اهتمامه، فيسبغ الوضوء، ويدلك الأعضاء، ويبلغ الأعقاب خوفاً من النار.

وما استعجل قط أثناء أداء صلاته، إنما كان يقوم بحقها، فيطمئن في قيامه وركوعه وسجوده مهما كانت الظروف والأحوال، وقد استمر على ذلك حتى أواخر أيامه، فكان كلما صحا من نومه سأل عن الصلاة هل جاء وقتها؟ حتى إنه كان يهم بأن يصلي الفرض مرتين خوفاً من أن يكون قد فاته وقت من الأوقات وهو نائم!

• يعجبني في جدي حبه العميق لبناته، واهتمامه بآخرتهن وبرضى الله عنهن، فكان من أجل ذلك يدعو لهن ويترضى عليهن وإن صدر منهن ما لا يعجبه، إذ كان يقدر تنوع الأذواق والأمزجة، ويقدر اختلاف الصفات والمزايا، فكان يكتفي بالتوجيه والمعاتبة، ثم يعقبه بإظهار الرضى والمرحمة.

• ويعجبني فيه حرصه الشديد عليهن وعلى راحتهن وسعادتهن، وخصهن بالجانب الأكبر من رعايته، وحنوه عليهن، واهتمامه بمشكلاتهن، ومساعدته لهن، ومحاولته التسرية عنهن، والإيصاء بهن، ثم اهتمامه بنا نحن الأحفاد وحرصه على تربيتنا وتوجيهنا والإحسان إلينا ولعلي قد وضحت ذلك في كتابي «هكذا ربانا جدي علي الطنطاوي» مما يغني عن إعادته هنا.

• كما أعجبني فيه أن اهتمامه بنا لم يصرفه عن تفقد أخواته وعائلاتهن، وكذلك إخوانه وأسرهم، بسؤاله عنهم وتحسسه أحوالهم، وتقديم ما يستطيع من مساعدة لهم.

• يعجبني في جدي حرصه على الاستفادة مما علمه الله في كل وقت، وفي أي مكان، فلا نراه إلا محدثاً بما قرأ وناشراً للعلم الذي تعلمه في كل مجلس يجلسه، فكان بتلك الصفة داعية لأهل بيته قبل غيرهم، ومعلماً لهم:

فمنه حفظت بعض القواعد الفقهية.

وهو الذي نبهني إلى فكرة الاحتكام إلى الشرع حتى في الأمور اليومية الصغيرة، فكان يحكم بيننا - نحن أهل بيته - بما علمه الله إياه من القرآن والسنة.

وإليكم مثالين: كان إذا اشتكى أحدنا الحر وأدار مكيف الهواء، ثم عارضه آخر لأن تيار الهواء البارد يسبب له ألماً في عظامه، حكم جدي للثاني عملاً بالقاعدة الشرعية التي تقرر أن «درء المفسدة مقدم على جلب المنفعة».

وإذا وهب أحدنا شيئاً لأخيه ثم جاء يطلبه، قال له جدي: لا يجوز لك استرجاع ما وهبته، لأن القاعدة الفقهية تقول: «الساقط لا يعود».

• يعجبني في جدي عشقه للكتب وحرصه الدائم على القراءة والفهم، فكانت مكافأته الأولى أن صار أديباً، ثم كانت مكافأته الثانية أن أراد الله به خيراً ففقهه في الدين وعلمه التأويل، فجمع له الخير كله.

وقد كان بهذا قدوة لنا، فحبب إلينا العلم وزينه في قلوبنا، وجعله أسمى غاياتنا، فصرنا نحب القراءة ونميل إلى الاطلاع، وصار الكتاب صديقنا، وعالم النشر من أحب العوالم إلى قلوبنا، وقد أفادتنا سعة الاطلاع في دراستنا، وفي علاقاتنا مع ذوينا وسهلت علينا أمور حياتنا، كما أنا أفدنا صاحباتنا مما تعلمناه فكان لجدنا الأجر المضاعف، ولنا الفائدة والمتعة.

• وأعجبني في جدي أنه كان دائماً كبير العائلة «وما أجمل العائلة التي لها رئيس عالم عاقل تحتكم إليه وتستشيره!» فإذا احتاج أحدنا النصيحة فهو الناصح الأمين، وكان إذا عرضت عليه المسألة أو الأمر فكر ملياً ثم أعطى الجواب، وكان أحياناً يقضي الليل ساهراً مفكراً في المشكلة التي عرضت عليه حتى إذا طلع الصباح بادر إلى صاحب المسألة فأعطاه الحل السليم.

وكان هو المصرف إن احتاج أحدنا المال فيدفع فوراً ولا يحدد أجلاً، بل كان يبادر للنجدة من دون أن يطلب منه أحد ذلك.

وعلى الرغم من أنه مر بأزمات شديدة في حياته «مثل وفاة والده، واضطراره إلى العمل إلى جانب الدراسة، ومن مثل وفاة والدته التي كان يحبها جداً والتي ظل يبكيها كلما ذكرها.. حتى جاءه الابتلاء الأكبر وغيره» ظل جدي صامداً محتفظاً بآلامه لنفسه، فما أشرك معه أحداً في معاناته، ولا طلب العون من أحد منا إلا من الله، وظل مدة حياته يعطي دون أن يأخذ ما يتناسب مع عطائه، وبقي يسند عائلته دون أن يطلب من يستند هو عليه، ولعل هذا هو أروع ما تحلى به. ■